الإنسان والثورة
محتملة أم مستبعدة

■ د. احميد حمد بوصبع *

■ **ملخص:**

تقدم هذه الورقة البحثية؛ دراسة تحليلية مقارنة لفكرة الثورة في الفكر الفلسفي المعاصر عند هربرت ماركيوز، وفرانز فانون؛ كوسيلة، وأداة لتحرر الإنسان من القيود السياسية، والاقتصادية المفروضة عليه من قبل أنماط الأنظمة البيروقراطية الرأسمالية والاشتراكية؛ حيث تبين أن هناك تلاقياً فكرياً بينهما حول فكرة الثورة، خصوصاً وأن أفكارهما الفلسفية تسعى لفهم المطالب التي ترمي إليهما الإنسانية؛ فجاءت بالتالي معبرة عما يعانيه الإنسان من ظلم وقهر.

■ **Abstract:**

This paper presents; A comparative analytical study of the idea of the revolution in contemporary philosophical thought by Herbert Marcuse and Franz Fanon; As a means and instrument of human liberation from the political and economic restrictions imposed on him by the types of capitalist and socialist bureaucratic systems; As it turns out that there is an intellectual convergence between them about the idea of the revolution, especially since their philosophical ideas seek to understand the demands that humanity aims at them It thus came to express what man suffers from injustice and oppression

■ **أولاً - المقدمة :**

يتناول الباحث فكرة الثورة في الفكر الفلسفي المعاصر، بغية الوقوف على الأسلوب والنهج، الذي دعا له بعض المفكرين والفلاسفة حولها؛ كوسيلة وأداة للتحرر من القيود السياسية والاقتصادية المفروضة على الإنسان من قبل أنماط الأنظمة البيروقراطية

* محاضر بقسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة سبها

المختلفة؛ حيث تعد الثورة لفظ أشكالي في الفكر المعاصر كونها تطرح الجدل والنقاش واسعاً حول أمكانية قيامها من عدمها، وترتبط بالإنسان محور البحث الفكري قديماً وحديثاً.

■ ثانياً - فكرة الثورة (إشكالية فلسفية) :

يلاحظ أن هناك تلاقياً فكرياً بين فرانز فانون (1925م-1961م) وهربرت ماركيوز (1898م-1979م) حول فكرة الثورة، خصوصاً وأن فلسفة ماركيوز تسعى لفهم المطالب التي ترمي إليها الإنسانية، فجاءت بالتالي معبرة عما يعانيه الإنسان من ظلم وقهر؛ ونتيجة لذلك أثر فكره في المجتمع الأوروبي الذي يعيش فيه، وخصوصاً أولئك المتمردين من الشباب، الذين وجدوا فيه خير معبر عن آرائهم وطموحاتهم، من خلال اطلاعهم على مؤلفاته التي طالما لوحوا بها في اجتماعاتهم ومظاهراتهم.[1] ومن الواضح جداً أن أفكاره كان لها علاقة وثيقة بحركات التمرد الطلابية في المجتمع الأوروبي وخصوصاً حركة طلاب فرنسا عام 1968م، غير أن ماركيوز لم يكن يقدم فكره لفئة معينة من الناس، بل كان يطرح أفكاراً فلسفية تهم الإنسانية وقضاياها.[2]

يلتقي فانون وماركيوز من حيث إن كليهما يدعو لحرية الإنسان، ويحاول تخليصه من براثن العبودية، سواء كان ذلك من سيطرة التكنولوجيا وقهر الآلة، كما يذهب ماركيوز في كتبه، أو من ظلم الاستعمار الغربي الرأسمالي، كما ذهب فانون في آرائه، الذي يرى أن الرأسماليين ظلوا "قروناً يسلكون في العالم المتخلف سلوك مجرمي الحروب. لقد كان الترحيل والقتل والأعمال الشاقة والاستعباد، ... هي الوسائل التي تستعملها الرأسمالية لزيادة مخزوناتها من الذهب والألماس، ومضاعفة ثرواتها، وتحقيق قوتها وسلطتها".[3] فالطبقة البرجوازية في النظام الرأسمالي يراها فانون طبقة تدعى الإنسانية ولكنها في حقيقة أمرها طبقة عرقية، تعمد "إلى إخفاء هذه العرقية بأقنعة كثيرة تتيح لها الإبقاء على مناداتها المعروفة بالكرامة الإنسانية. لقد هيأت البرجوازية الغربية عدداً كافياً من الحواجز والسدود حتى لا تخاف حقاً من منافسة هؤلاء الذين تستغلهم وتحتقرهم. إن التعصب العرقي البورجوازي الغربي تجاه الزنجي إنما هو تعصب احتقار، وتعصب استهانة".[4]

دعا فانون دول العالم الثالث لرفض هذا النمط الغربي، من حيث هو طراز حياة، لأنه

لا يمكن له أن يمكن هذه الدول من تحقيق العدالة الاجتماعية لشعوبها حيث الاستغلال والاحتكار اللذين تقوم عليهما الرأسمالية، هما أعداء لشعوب البلدان المتخلفة.[5] إنه يرى أن هذا النظام شيده أناس يختلفون عن شعوب هذه البلدان مكاناً وزماناً، وأنه نظام شتت وظائف الإنسان، وفتت وحدته، وأوجد في المجتمعات التي تطبقه توترات دامية تغذيها الطبقات، وأوجد على مستوى الإنسانية استعباداً واستغلالاً وأحقاداً عرقية وحروباً.[6]

بينما يرى ماركيوز أن النظم الرأسمالي، الذي وصل إلى أعلى درجات التقدم والرقي التكنولوجي، قد أصبح فيه الإنسان مقهوراً ومستعبداً، لكن هذا القهر والاضطهاد يمارس عليه بعقلانية تامة، تعتمد أسلوباً عقلياً محكماً في إيجاد عناصر الاستغلال والعبودية، دون اللجوء إلى العنف، فالبلاد " الرأسمالية الكبرى، ولا سيما الولايات المتحدة، ... (يلاحظ أن) الطغيان يمارس على أساس من المعقولية التامة، وفي ظل الحساب الدقيق لكل الظروف والاحتمالات، دون أن تدخل فيه نزوات حاكم مستبد أو أهواء سلطة عنيدة ".[7] أن التقدم الحاصل في المجتمع الصناعي الرأسمالي، مكنه من أن يطغى على عنصر النفي، الذي يمكن من إيجاد مجال للتجديد والتغيير، " فالرفض الفكري والانفعالي للمثالية يبدو وكأنه علامة تعصب وعجز. ذلك هو المظهر الاجتماعي – النفسي لأبرز حدث سياسي في العصر الحديث: زوال تلك القوى التاريخية التي كانت تمثل في المرحلة السابقة إمكانيات وأشكالاً لحياة جديدة ".[8] هذا ما جعل فانون يصيح بالقول: " ونحن نشهد اليوم تجمد الدم في شرايين أوروبا. فلنهرب أيها الرفاق من هذه الحركة الساكنة التي استحال فيها الديالكتيك شيئاً فشيئاً إلى منطق توازن. و لنطرح مشكلة الإنسان من جديد ".[9]

بمعنى أن العقل يتمكن من فرض سيطرته على الإنسان، دون اللجوء إلى القوه والعنف، وذلك باتباعه أساليب مختلفة تمكنه من ترويض الإنسان، فيعيش في المجتمع الرأسمالي دون معارضة، وينساق مع ظروف الحياة الاجتماعية، ويصبح أحادي البعد، دون خيار منه، " فالإرضاء الشامل للجماهير، وأبحاث التسوق وعلم النفس الصناعي، ورياضيات العقول الالكترونية، وما يسمى بعلم العلاقات الانسانية، وبفضل هذه الوسائل كلها يتم تحقيق الانسجام بين الفرد والرغبات الضرورية للمجتمع، أي بين الاستغلال والخضوع، بطريقة غير إرهابية ديمقراطية".[10] لهذا يرى فانون أن البورجوازية الغربية، " التي

نشأت في أوروبا قد استطاعت أن تضع أيديولوجيا، مع تعزيزها لقوتها الخاصة. إن تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة العلمانية، قد نجحت نجاحاً كبيراً في [إعطاء]الشعب حداً أدنى من الرخاء ".[11]

بينما البورجوازية في الدول المتخلفة، « إنها وهي معلقة بأوروبا، تظل مصممة تصميماً قوياً على انتهاز الفرصة. والأرباح التي تجنيها من استغلال الشعب ما تلبث أن تصدرها إلى الخارج...، إنه ليس هناك بورجوازية حقيقية، بل فئة محتكرة ...، تسيطر عليها فكرة الربح ...، وتتمتع بحصص من المنافع تخصها بها الدولة المستعمرة القديمة. وهذه البورجوازية الرخيصة عاجزة عن تمثيل أفكار كبرى، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار».[12]

في المجتمع الرأسمالي، ومن خلال الوسائل التي ذكرت، التي تمتلكها قوى التحكم، سيطرت على الإنسان من خلال تناسقها التام في علاقتها. فأصبح إنساناً مقهوراً أحادي البعد، وهنا يصف ماركيوز هذا القهر، الذي يمارس على الإنسان في المجتمع الرأسمالي، « إنه أولاً قهر عقلي منطقي، يندمج تماماً مع المقومات الأساسية للتنظيم الاجتماعي، وليس عقبة في وجه هذا التنظيم، أو حالة انحراف انفعالي عابرة، وأنه ثانياً قهر يمارس على الإنسان كله، على حياته الباطنة، وعلى تفكيره وعقله وعواطفه، بقدر ما يمارس على مظاهر حياته الخارجية وظروف عمله وإنتاجه وعلاقته الاجتماعية. وتلك في الواقع هي قصه القضاء على إنسانية الإنسان في المجتمع الصناعي الحديث».[13]

من هنا وباستخدام العقل ودون اللجوء إلى العنف، وقع الإنسان في المجتمع الرأسمالي تحت سيطرة الإدارة، وفي «الواقع أن الإدارة التي تتحكم في العمليات الاقتصادية، أصبحت في عصرنا الحاضر أكمل وسائل السيطرة على البشر والتحكم فيهم، بحيث غدت أفضل المجتمعات إدارة هي أكثرها عبودية. ولقد أصبح من الضروري في عصرنا هذا أن ترتبط عملية الترشيد المتزايد للإنتاج باستبعاد متزايد للإنسان.»[14] وبذلك يفقد الإنسان حريته، دون أن يشعر، وتسلب من حياته إرادة التغيير، وينتفي الفعل الثوري على النظام الرأسمالي، والذي من المفترض أن تقوده الطبقة العاملة، على هذا الأساس يرى ماركيوز أن « المعارضة السلبية [في المجتمع الرأسمالي] قد تحولت إلى معارضة إيجابية، ... [ذلك لأن] الفوائد الملموسة الناجمة عن هذا النظام تعتبر جديرة بالحماية والدفاع عنها ".[15]

نتيجة للاستهلاك أصبحت المعارضة المتمثلة في الطبقة العاملة تحافظ على استمرار النظام الرأسمالي، فهي تخدم مصالحه وتعمل لفائدته، بدلاً من إحداث التغيير والثورة عليه، ومنها اكتسب هذا النظام شرعية البقاء والسيطرة على المجتمع، الذي تحول إلى تابع للطبقة البرجوازية والنظام الرأسمالي، وسقط بذلك رهان التحول الجذري فيه، والذي من المفترض أن تقوم به المعارضة. وهذا ما لاحظه فانون، على أن البوليتاريا " هي من الشعب المستعمر نواة يفيض عليها النظام الاستعماري أكثر ما يفيض من خير. إن البوليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبياً ببعض الامتيازات ... وهي بما لها من امتيازات في ظل النظام الاستعماري، يمكن أن تعد الجزء البورجوازي من الشعب المستعمر"،[16] كما أنها في المجتمعات الرأسمالية الأوروبية لم تستجب لنداء الماركسيين لها بالتغير وتحطيم النرجسية الرأسمالية، والكف عن تجريد الوقائع وذلك أن العمال قد ظنوا أنهم أيضاً مرتبطون بهذه المغامرة.[17]

فإن الرأسمالية هي التي خلقت ماركس كما خلقت الأوتوقراطية الروسية لنين، فطبقة العمال في المصنع الرأسمالي هي منفذة الثورة الماركسية، بينما هذه الطبقة نفسها يعتبرها فانون " ليست ثورية ولا هي متعاطفة مع الشعوب المستعمرة، بل في عداد المستفيدين من الاستعمار الجديد، بل هم شركاء فيه ".[18]

إذن فانون لم يكن ماركسياً بالمعنى التقليدي، وهذا ما يجمعه " بأيمي سيزار"، الذي عبر عن هذا النفور في خطابه إلى " موريس كوريز". زعيم الحزب الشيوعي في فرنسا، عندما اقترح على الحزب منح الحكومة سلطات خاصة، تمكنها عملياً من التصرف بالجزائر كما تشاء، " إن ما أريده وأرغب فيه هو أن تخدم الشيوعية والماركسية الشعوب الزنجية، لا أن تخدم هذه الشعوب الماركسية والشيوعية ".[19] كما أن فانون ليس معنياً، متبعاً خطى "سارتر"، قد تخلى عن طبقة البوليتاريا (افيون ماركس) خلال انتقالها من اشتراكية إنسانية إلى شكل أقوى من الاشتراكية المبنية على العنف.

لهذا يتضح حماس فانون لطبقة الفلاحين كممثلين لثوار (معذبو الأرض) " أما الفلاح والعاطل عن العمل والمواطن الأصلي الجائع، فلا يسعون إلى الحقيقة ولا يدعون أنهم يمثلونها، ذلك أنهم هم الحقيقة نفسها ".[20]

ذلك بخلاف ماركس أو لنين الذين لم يتطرقوا إلى احتمال قيام الفلاحين بثورة

ناجحة، كأنما عامل المصنع الآتي من المدينة (رحم الرأسمالية) هو وحده المخول بتنفيذ الثورة، وهذا ما يذكره صراحة الزعيم الشيوعي الفيتنامي "نغوين". الذي يرى "أن الفلاح لا يستطيع مطلقاً أن يكتسب من تلقاء ذاته وعياً ثورياً، إلا من خلال المناضل القادم من المدن".[21] بينما المثل الأعلى الذي ينشده فانون ينطوي على تشكيل حزب ثوري واحد أصيل تكون قاعدته من الفلاحين.[22] لأنهم هم وحدهم حلم الثورة ومصدرها، كونهم الفئة التي عانت أشد العذاب في المستعمرات.

لهذا فإن فانون ليس معنياً بتحليل الرأسمالية بقدر ما هو معني بالتخلص من آثارها، فهو هنا يشابه موقف ماركيوز الذي يرى أن أزمة النظام الرأسمالي " هي أزمة وجود تهزه من أساسه ".[23] فإن الاستعمار كأحد مظاهر هذه الرأسمالية – كما يرى فانون – " يشوه الطبيعة البشرية ".[24]

سعى ماركيوز إلى حل أزمة الرأسمالية حلا وجودياً دون أن يقدم حلولاً اقتصادية، مكتفيا بالاعتماد على آراء ماركس الأولى، قبل أن تدخل الماركسية حيز التنظير الاقتصادي، وهي المرحلة التي تمثل شباب ماركس حينما كان يتحدث عن " الطبيعة البشرية الصحيحة "، وهي نفس السمة التي ميزت مطلع شباب فانون في اعتقاده بأن " جميع أنماط الاستغلال متماثلة، لأنها جميعا تتناول الموضوع نفسه وهو الإنسان، واصفاً من ينسى أو يتغافل عن هذا هو كمن يدير ظهره ببساطة للمشكلة الأساسية الرئيسية، ألا وهي إمارة الإنسان على مكانه الصحيح، كما أشار ماركس ".[25] وهي المكانة الصحيحة ذاتها، التي يجاهد ماركيوز من خلال نقده للمجتمع الغربي، حيث يخلق الاقتصاد لخدمة الإنسان فيتحول الإنسان لخدمة الاقتصاد، وتصنع الآلة من أجل الإنسان، فيتحول الإنسان لخدمة الآلة، لذلك ضاعت كل القيم في المجتمع الرأسمالي.[26]

يختلف فانون عن ماركيوز من حيث إنه لم يتوجه بالنقد المباشر للتجربة الاشتراكية السوفيتية، ربما لأن النظام السوفيتي لم يكن نظاماً استعمارياً يضطهد فيه الإنسان، بينما نجد ماركيوز ينتقد النظام الاشتراكي السوفيتي، ويرى أنه " وقع في فخ السعي إلى التفوق الإنتاجي، فكانت النتيجة إن تكررت فيه نفس الأخطاء التي تولدت عن هذا السعي في المجتمع الرأسمالي، فالهدف الذي يتجه إليه المجتمع السوفيتي بكل قواه هو تجاوز معدلاته الإنتاجية باستمرار حتى يلحق بالغرب ثم يتفوق عليه وحين تصبح الزيادة

الإنتاجية غاية قصوى يتحول الإنتاج ذاته إلى مجرد أداة لتحقيق الهدف الأسمى ".[27] هنا يتضح أن فانون نظر إلى التجربة السوفيتية من الخارج. بينما نظر إليها ماركيوز من الداخل.

إن هذه الاستراتيجية جعلت الإنسان وسيلة لزيادة الإنتاج، في حين كان من المفترض في الصياغات النظرية ووضع الأهداف، أن يكون هو الغاية القصوى التي يسعى ويعمل من أجلها النظام، فتحول بذلك إلى إنسان تائه، يعاني من أزمة الاغتراب داخل مجتمعه، الذي فرض عليه خططه، حيث " تخضع جميع الاعتبارات الإنسانية لتنفيذ التخطيط الشامل ومن الضروري أن يؤدي استهداف الزيادة الإنتاجية إلى وضع نظام إداري يتسلط على كافة جوانب الحياة. فهنا تصبح السيطرة لكبار رجال الإدارة، أي البيروقراطيين ولكبار الفنيين المتخصصين في العمليات الإنتاجية، أي التكنوقراطيين، ويضيع الإنسان نفسه وتغترب بين هؤلاء وأولئك ".[28]

من هنا فإن ماركيوز يذهب لينتقد التجربة السوفيتية، التي سعت لتطبيق الاشتراكية لكنها حادت عن المبادئ الاشتراكية، حيث " وصلت الشيوعية إلى عكس ما أعلنته من شعارات، فبدلاً من إقامة مجتمع لا طبقي وصلت إلى تحكم طبقة جديدة من قيادات الحزب والدولة، واستولت هذه الطبقة على كل ملكية الشعب، وجعلت نفوذ الدولة نفوذاً مطلقاً، وزادت من حدة الاستغلال والاضطهاد للشعب ".[29]

لذلك فإن ماركيوز ينتقد كلاً من النظام الرأسمالي والتجربة السوفيتية الاشتراكية، لأن كليهما جعلا الإنسان تائهاً يعيش حالة اغتراب دون هوية، ويسير وفق قوانين معينة أحادي البعد والتفكير، حيث " غدا اليوم الواقع التكنولوجي ذلك المجال الخاص وضيق نطاقه. فالفرد مأخوذ بجماع شخصه في عملية الإنتاج والتوزيع الكبيرة ".[30] لقد أصبح الفرد مرتبطاً بالعمل ومقيداً به، واضحت علاقته مع الآلة بدل علاقته مع الأفراد في محيطه الإنساني، فأصبحت علاقة الأفراد في كلا المجتمعين علاقة مادية غير إنسانية، "بل إن الصراع بين النظامين السائدين في البلدين الكبيرين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ،هو ذاته عامل يؤدي إلى تثبيت الأوضاع غير الإنسانية في كلا النظامين ".[31]

وفق هذا الأساس أو شيء قريب منه، نرى أن فانون وصل أيضاً إلى رفض فكرة أن تختار شعوب العالم الثالث الانضمام إلى أحد هذين النظامين الرأسمالي أو الاشتراكي،

بل يجدر بها أن تجد نموذجاً مغايراً يناسب ويلائم بيئتها، ويكون في ذات الوقت غير مستورد من بيئة مختلفة عنها تماماً في الزمان والمكان، حيث يذهب إلى " أن البلدان المتخلفة التي استفادت من التنافس الضاري القائم بين النظامين من أجل أن تكفل انتصار كفاحها في سبيل التحرر الوطني، يجب عليها مع ذلك أن ترفض الإقامة في نطاق هذا التنافس. إن على العالم الثالث أن لا يكتفي بتحديد ذاته على أساس قيم مسبقة. إن على البلدان المتخلفة أن تلتمس قيماً خاصة بها، وأن تضع المناهج التي تناسبها، وأن تتبع الأسلوب الذي يلائمها إن المشكلة المحسوسة التي نجد أنفسنا أمامها ليست أن نختار، مهما كلف الأمر بين الاشتراكية والرأسمالية، كما حددهما اناس يختلفون عنا مكاناً وزماناً ".[32]

يعيب فانون على البورجوازية في دول العالم الثالث، تبنيها لأنماط الفكر الغربي الرأسمالي، فيرى هذه " البورجوازية التي تبنت متحمسة، وبلا تحفظ الأساليب الفكرية التي تتميز بها عاصمة البلد المستعمر،... لا بد أن تدرك وقد جف حلقها، إنه يعوزها ذلك الشيء الذي يصنع البورجوازية أعني المال. إن بورجوازية البلدان المتخلفة هي بورجوازية بالفكر. فلا قوتها الاقتصادية ولا نشاط أفرادها ولا سعة نظراتها هي التي تكفل لها صفة البورجوازية».[33]

يقف فانون ضد إقامة الأنمـوذج الغربي، والمتمثل في كلا النظامين الرأسمالي والاشتراكي، كونهما نتاجاً للفكر الأوروبي، وهو فكر دخيل على مجتمعات العالم الثالث، كما أن فانون الذي يخوض تجربة التحرر ضد الاستعمار في الجزائر، يربط ما بين الرأسمالية والاستعمار، فهو يرى أن دول العالم الثالث تقف أمام رأسمالية أوروبا» تريد أن تحاول حل المشكلات التي لم تستطع أوروبا أن تأتي لها بحلول. ولكن يجب علينا أن لا نتحدث عن وفرة الإنتاج، أن لا نتحدث عن الجهد العنيف ... يجب علينا أن لا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الإنسان وننتزعه من ذاته، من صميمه، وأن نحطمه، أن نقتله،... نحن لا نريد اللحاق بأحد ولكننا نريد أن نمشي طوال الوقت ليلاً ونهاراً في صحبة الإنسان».[34] من هنا فهو يدعو لإقامة نظام اشتراكي، يختلف تماماً عن التجربة الاشتراكية الأوروبية، حيث يقول : « إن اختيار نظام اشتراكي يلتفت برمته إلى مجموع الشعب، ويقوم على مبدأ اعتبار الإنسان أثمن قيمة، سيتيح لنا أن نسير بأعظم سرعة

وأكثر انسجاماً، وسيحول بذلك دون قيام مجتمع مشوه تملك فيه حفنة من الناس جملة القوى الاقتصادية والسياسية على حطام سائر الأمة».[35]

■ **ثالثاً - حضارة الايروس (حرية الإنسان) :**

على الرغم من تطابق الأسس العامة ما بين فانون وماركيوز في رفض كلا النظامين الرأسمالي والاشتراكي الغربيين، لما يمثلاه من استغلال واستعباد وكبت لحريات الإنسان، إلا إن ماركيوز يطرح أنموذجاً آخر مغايراً تماماً لما يطرحه فانون، متمثلاً في حضارة الايروس. حضارة الجنس والاستمتاع بالحياة، كحل لمشكل الإنسان الضائع ذي البعد الواحد، وبديلاً عن الحضارات المعاصرة، التي سلبت من هذا الإنسان حريته، حيث يرى أن فى حضارة الايروس « تصبح للخيال الغلبة على العقل، وذلك لأن العقل كان الأداة الرئيسية في يد حضارة الكبث والقهر، وهو الذي أتاح للمجتمع الصناعي أن يتسلط على كل جوانب حياة الإنسان ويوجهها في خدمة أغراض الربح والتوسع الاقتصادي لذلك كان من الضروري استعادة التوازن بين الايروس واللوجوس. لحساب الأول، لكن دون إنكار تام للثاني، وعلى هذا النحو وحده، يصبح للإنسان كل الجوانب بعد أن كان من قبل أحادي الجانب».[36] وبانتقال الإنسان إلى هذه الحضارة، يتمكن من أن يوازن بين العقل الذي مارس عليه الاضطهاد والسيطرة والقمع وأدى إلى سلب حريته منه وبين خياله الذي دائماً يشعره بالسعادة، فإن ماركيوز يرى أن الحضارة المعاصرة تقمع الإنسان وتكبت غرائزه الجنسية. حيث يقول « إن أيروس وحده قوياً يمكنه أن يضبط بنجاح غرائز التدمير وهذا تماماً ما تعجز عن تحقيقه حضارة نامية، وذلك أن وجودها نفسه يتوقف على ضبط ومراقبة شاملتين متعاظمتين في الشدة فإن سلسة إحباطات وانحرافات الأهداف الغريزية لا يمكن أن تحطمه. وإذا تحدثنا بصورة عامة نقول : إن حضارتنا قائمة على قمع الغرائز».[37] بينما حضارة الايروس ترفض الكبت الجنسي، الذي يعانيه الإنسان في الحضارة المعاصرة وتبيح له إشباع رغباته الجنسية دون كبت لهذه الرغبات.

يذهب ماركيوز إلى أنه من خلال هذه الحضارة، يتحرر الإنسان من سيطرة العقل وقمعه، ويحقق الانسجام بين العقل والغرائز، فيقول : « إن هذه الرؤية لحضارة لا قمعية،... تضمنت علاقة جديدة بين الغرائز وبين العقل: وفيها تنقلب الأخلاق الحضارية رأساً على عقب بتحقيق الانسجام بين الحرية الغريزية والنظام فحين يتم تحرير الغرائز

من طغيان العقل القمعي فإنها ستتجه نحو إقامة علاقات حرة قابلة للاستمرار وتسمح بنشوء مبدأ جديد للواقع « .[38] وهنا وبشكل متشابه يبين فانون ذلك فى تحليله الشخصية الزنجية، التي تعوض في الجنس (ايروس ماركيوز) ما افتقدته في الحضارة (ليجوس ماركيوز)، حيث يذهب إلى « أن كل ما في الأمر أن الزنجي الذي يجد نفسه على الدوام عاجزاً عن تحقيق ذكورته من الزاويتين الاقتصادية والاجتماعية، مضطراً في النهاية إلى تبني ما يعتبره تعويضاً عن هذا العجز، فيرتدي رداء الإنسان المتفوق على الإنسان الأبيض رياضياً وجنسياً « .[39] ويقدم نزوة الرجل الأسود « في حيازة المرأة البيضاء على أنها مشهد الاستعمار الاولى [يقول]عندما تلاطف يداي تلك النهود البيضاء، فإنهما تمسكان بالحضارة والكرامة الغربية وتجعلاهما ملكي ".[40]

تتسم حضارة الايروس " بالبساطة ومراعاة مطالب الإنسان الحقيقية في كل شيء، وأهم هذه المطالب جميعاً الحاجة إلى السلام، التي تعني أساساً القضاء على روح الهدم والتخريب السائد في المجتمع الراهن ".[41] فالحضارة الجديدة تلغي فكرة وجود العدو من الأساس، ذلك العدو الذي ينعته فانون بالخصم والإنسان الذي يجب القضاء عليه بقوة العنف.[42] وما يترتب على هذه الفكرة من سباق في التسلح يكون الإنسان ضحيته الأولى.

إن العامل الأساس لاكتمال شخصية الإنسان في نظر ماركيوز، هو الاستمتاع بالقيم الجمالية في وقت الفراغ،[43] من خلال ذلك يجد الإنسان الضائع نفسه، ويتمكن من الابداع والنقد، ويتجاوز أحادية البعد، ويقيم علاقات اجتماعية إنسانية تحقق له آدميته ويتحرر من خلالها من القمع، الذي فرضته عليه الحضارة المعاصرة من خلال فرض نمط أسلوب العمل اليومي، وهذا ما يفسره قول ماركيوز بأن " طول يوم العمل، يشكل هو نفسه أحد العوامل القمعية الرئيسية المفروضة على مبدأ اللذة من قبل مبدأ الواقع".[44]

إن وقت الفراغ أو الوقت الحر الذي تنادي به حضارة الايروس، يحقق إنسانية الإنسان التي افتقدها في الحضارة المعاصرة، حيث إن " هذه القيم الجديدة تدور كلها حول محور واحد هو المحور الجمالي، فالحب والسلام والهدوء والتفوق كل هذه وسائل لتحقيق أعظم قدر من المتعة الجمالية للإنسان، وتصور الايروس ذاته، أي القوة الحيوية لدى الإنسان، يرتبط أوثق ارتباط بالنظرة الجمالية إلى الحياة ".[45] فينتصر الإنسان على واقع القمع ويعيش في واقع أساسه الحب والجمال.

من خلال عرض ماركيوز لحضارة الايروس الجديدة، فهو لا يدعو الإنسان إلى العودة إلى عصور ما قبل الصناعة وما قبل التكنولوجيا والتنازل عن التقدم التكنولوجي، كأولئك المفكرين الذين تصوروا أن الإنسان ولكي يصل إلى السعادة الحقيقة عليه أن يعود للارتباط المباشر بالطبيعة،[46] بل إن التقدم يعد نقطة جوهرية في حضارة الايروس، فإذا كانت التكنولوجيا قد استخدمت كأداة لاستعباد الإنسان في الحضارة المعاصرة، حيث جعلت منه إنساناً مسلوب الإرادة ذا بعد واحد لا يمتلك روح النقد، فإنها في الحضارة الجديدة سوف تكون أداة للتحرر، حيث يقول ماركيوز: " الانقلاب هو وحده الذي يستطيع أن يحرر التكنولوجيا من خضوعها لسياسة القوى المسيطرة التي تستخدمها بدورها كأداة سلبية ".[47] هذا هو الأسلوب الذي يفترضه ماركيوز للسيطرة على التكنولوجيا لتكون لصالح الإنسان.

يرى ماركيوز " أن الإلغاء التكنولوجي للفرد ينعكس على انحلال الدور الاجتماعي للأسرة "[48] فالإنسان عندما يعود إلى حياته الاجتماعية يجد إن الأسرة انتهت وحل محلها التقدم التكنولوجي، ومع ذلك يتطلب تقدماً تكنولوجياً حتى يتوفر الإنتاج لبلوغه نوعاً من الوقت الذي هو في مصلحة الإنسان والفرد، فالمجتمع الإنساني الذي يسعى ماركيوز لبلوغه وتحقيقه " يفترض وجود مستوى عالٍ إلى أبعد حد من القدرة الإنتاجية ومن التقدم التكنولوجي، ولكن المهم في الأمر أنه يدعو إلى وضع هذه الاعتبارات الاقتصادية والفنية، حيث ينبغي أن تكون " اعنى بوصفها وسائل تخدم غايات تعلو عليها ...، فهدفه هو أن يتجاوز الإنتاج والتكنولوجيا مع احتفاظه بهما ".[49] إن حضارة الايروس الجديدة لا تدعو الإنسان بأن يغرق في إشباع رغباته الجنسية، والبحث فقط عن الحب والسلم والتقاعس عن أداء العمل، بل إنها تحثه وتطالبه بزيادة الإنتاج، حتى يتمكن من كسب وقت يمارس من خلاله القيم الجمالية، التي لم يكن يحظى بها في الحضارة المعاصرة.

رابعاً - الخاتمة :

مما سبق نستنتج إن ما أراد فانون أن يكشف النقاب عنه، هو لماذا أصبحت الثورة ضرورية وممكنة، بل حتمية في عالم بات يعي أن ليس أمامه ما يخسره غير أغلاله؟ أما ما يحاول ماركيوز أن يكشف عنه، فهو لماذا بدأت الثورة مستبعدة وغير محتملة، بل مستحيلة في عالم يخشى أن يفقد مع الثورة امتيازاته؟ . إذ إن ماركيوز مثله مثل فانون في خاتمتي

كتابيهما يبحثان عن أمل من خلال ثورة حقيقة للإنسان، من خلالها يستطيع أن يصوغ حضارته هو، رغم هدير الآلة وضجيج عجلاتها وتروسها.

لهذا السبب دعا فانون دول العالم النامية لرفض النمط الغربي، من حيث هو طراز حياة، لأنه لا يمكن له أن يمكن هذه الدول من تحقيق العدالة الاجتماعية حيث الاستغلال والاحتكار اللذين تقوم عليهما الرأسمالية، هما أعداء للشعوب. يذهب إلى أن النظام الرأسمالي شيدته مجتمعات تختلف عن شعوب هذه البلدان مكاناً وزماناً وأنه نظام شتت وظائف الإنسان، وفتت وحدته، وأوجد في المجتمعات التي تطبقه توترات دامية وصراع بين الطبقات الغنية والفقيرة، وأوجد على مستوى الإنسانية استعباداً واستغلالاً وحروباً.

يتفق ماركيوز مع فانون بأن النظام الرأسمالي، الذي وصل إلى أعلى درجات التقدم التقني، قد أصبح فيه الإنسان مقهوراً ومستعبداً، لكن هذا القهر والاضطهاد يمارس عليه بعقلانية تامة، تعتمد أسلوباً عقلياً محكماً في إيجاد عناصر الاستغلال والعبودية، دون ممارسة العنف، أن التقدم الحاصل في المجتمع الصناعي، مكنه من أن يطغى على عنصر النفي، الذي يمكن من إيجاد مجال للتجديد والتغيير الثوري.

بمعنى أن العقل في المجتمعات الصناعية تمكن من فرض سيطرته على الإنسان، دون اللجوء إلى أسلوب القوه والعنف، وذلك باتباعه أساليب مختلفة تمكنه من ترويض الإنسان، فيعيش في المجتمع الرأسمالي دون معارضة سياسية واقتصادية، وينساق مع ظروف الحياة الاجتماعية، ويصبح الإنسان ذا البعد الواحد.

قائمة المراجع :

1. أحمد السعدي، أمريكيا والإنسان: هربرت ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مجلة الفكر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر العدد (58)، 1969، ص 24-25.

2. أحمد السعدي، أمريكيا والإنسان: هربرت ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، المرجع السابق، ص24.

3. فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، جمال الأتاسي دار القلم، بيروت، الطبعة الاولى، 1972، ص80.

4. فرانز فانون، معذبو الأرض، المرجع السابق، ص125.

5. فرانز فانون، معذبو الأرض، المرجع السابق، ص79.

6. فرانز فانون، معذبو الأرض، المرجع السابق، ص223.

7. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، الكراسة الثانية، دار الفكر المعاصر للنشر والتوزيع، 1978، ص43.

8. هربرت ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآدب، الطبعة الثالثة، بيروت، 1973م ص46.

9. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص223.

10. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص44.

11. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص223.

12. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص132-133.

13. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص44.

14. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص45-46.

15. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص182.

16. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص85.

17. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص222.

18. ديفيد كوت، فرانز فانون، ترجمة عدنان كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1971، ص119.

19. ديفيد كوت، فرانز فانون، مرجع سابق، ص78.

20. فرانز فانون، بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي، الطبعة الثانية، 2004، ص135.

21. ديفيد كوت، فرانز فانون، مرجع سابق، ص86.

22. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص95.

23. حسن حنفي، قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة 1982، ص423.

24. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص79.

25. ديفيد كوت، فرانز فانون، مرجع سابق، ص50.

26. هربرت ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق، ص 180.

27. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص 57.

28. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص 57-58.

29. محمود حمدي زقزق، تمهيد للفلسفة، دار المعارف بالقاهرة الطبعة الرابعة 1992، ص229.

30. هربرت ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق ص46.

31. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص59.

32. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص79.

33. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص135.

34. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص223.

35. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص79.

36. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص74.

37. هربرت ماركيوز، الحب والحضارة، ترجمة مطاوع صفدي دار الآداب بيروت، 1970، ص119.

38. هربرت ماركيوز، الحب والحضارة، مرجع سابق، ص241.

39. ديفيد كوت، فرانز فانون، مرجع سابق، ص63.

40. أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الآدبية ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، الطبعة الاولى 2007م، ص152.

41. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص78.

42. فرانز فانون، معذبو الأرض، مرجع سابق، ص45.

43. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص78.

44. هربرت ماركيوز، الحب والحضارة، مرجع سابق، ص196.

45. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص79.

46. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص61.

47. هربرت ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق، ص20.

48. هربرت ماركيوز، الحب والحضارة، مرجع سابق، ص135.

49. فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص61.